

أسباب أخرى للفرح

عاهد حلس، فلسطين

خطايا الظل في حضرة الشمس

نَجَتْ هي وحدها،

أو ربّما ماتت،

أو مات نصفها،

ولكنهم أخرجوها من تحت الركّام،

وقيّدوا سبب الحياة:

"معجزة"

لكنّها صارت —ولسببٍ غامض—

تقلق من أي خبرٍ عاجل

قد يُعلن انتهاء الحرب.

قيل: لأنّ اتّساع الإبادة

فيه عزاءٌ للقلب،

وقيل: لأنّها كانت ترسل الحلوى

لأطفالها ليلاً،

مع كلّ طفلٍ يموت في الحرب.

لا أحد يفهم ما الذي

يُحدثه الفقد في القلب،
حتى هي لم تكن تعرف،
ولكنّها ظَلَّتْ مثلما كانت:
زهرةً بيضاء على الشرفة
تُراقب سرّاً ما إلهيّاً،
وتُسبِّح بحمد الله
في ليلةٍ بيضاء كالثلج.

عامان... ولم يرجع القمر

مُنْذُ عامَيْنِ،
والقمرُ مِثْلُنَا،
عاطلٌ عنِ العَمَلِ.

لا حُبَّ غُذْرِيَّاءٍ في المدينة،
ولا حُزناً ناعِماً
يَطْبَعُ صورةَ شَهِيدٍ
على وجهِ القمرِ.

ولا صَحِكَاتِ العائِلَةِ في ليالي الصيف
يشرق منها القمر،
ولا شايِ المساءِ
يُعيدُ الطفولةَ كامِلةً
تحتَ عَرِيشَةِ العِنَبِ،
مُنْذُ عامَيْنِ،

ونحنُ عاطلونَ عنِ العَمَلِ،

لا مِهْنَةَ لَنَا،

سِوَى انتِظَارِ القمرِ.

أسباب أخرى للفرح

كيف سأُعلِّمُ طفلي بعد الحرب،

أَنَّ النجومَ ليست دموعاً،

وَأَنَّ صَوْتَ البحرِ في الليلِ

ليس أنفاسَ الحربِ حينَ تنامُ

وَأَنَّ الليلَ

يسكنهُ القمرُ

لا صوتُ الطائراتِ.

وَأَنَّ الفجرَ موعِثٌ

لصحو العسافيرِ ورائحةِ النعناعِ

لا لتشييعِ الجنازاتِ.

كيف سأُعلِّمه

أَنَّ في الحياةِ

أسباباً أخرى للفرحِ

غيرَ رَغيفِ الخبزِ

غيرَ النجاةِ.

الشجاعة: حيُّ وذاكرةٌ وماء

ولدتُ في حي الشجاعة،
 حيث الأمهات يُقشّرن العتمة، ليولد الصباح على صوت "بابور الغاز" ورائحة الشاي.
 وُلدتُ تحت سقفٍ من صفيحٍ اسودَّ من أثر مواقد الشتاء.
 وُلدتُ في ليلةٍ رمضانية، حيث كانوا يُعدُّون للضيوف القطايف المنكَّهة بجوزة الطيب وطيبة قلوب الناس.
 كبرتُ في شوارع التراب،
 حيث كانت الحُبيرة تنبت تحت الحيطان،
 ويأكل منها الأطفال "رغيف النبي"، ويحمدون الله بتمتمات كما تفعل الجدّات.
 كبرتُ بين صديقات أُمي،
 وحسرات قلوبهنَّ على زمن ذهبي طوته الحرب وعلى أوسمِ شبان العائلة الذين
 ودَّعوا أمَّهاتهم
 وتركوا ضحكاتهم على شجر التين.
 ولم يرجعوا من جبهة الحرب، حفظتُ قصصهن عن الليل في حفرة الملجأ وعن البندقية التي ابتاعها جدي
 وأكملَ ثمنها بخواتم جدي،
 وعن صوت الميكروفون،
 يعلن بلغةٍ عربيةٍ تخرج من رئةٍ معدنية:
 منع التجوال، وسقوطُ البلاد.
 سمعتُ قصصهنَّ عن بكاء الرجال،
 وعن لحظة الخروج من باب الملجأ،
 حيث كانت الشمس تُؤذي العيون، ولا تُبدد شيئاً من العتمة.
 وُلدتُ هناك، في ذلك الزمن البعيد،
 وما زلتُ في الملجأ ذاته،

الخالى من وجه أمى وصديقاتها،
أُخْبِيَّ وجه أطفالى من هدير صوت الطائرات،
وأعدهم بشمسٍ لا تُؤْذى عيونهم، وتبدّد العتمة كلّها.

صمت على حافة الرجاء

أعلى الصرخات، صرخةُ الأمِّ الثكلى.
ليس الحزنُ مَنْ يصنع الصرخةَ أو الوجع،
بل الرجاء، الرجاء الأخيرُ الذي تُحاولُهُ أصابعُ اليدِ المتشنّجة على حافةِ السور، قبل أن يهوي الجسدُ من علوّ
شاهق.

رجاء الصّدفة المطمئنة في زرقاة البحر، قبل أن تُلقى بها موجةٌ عابثة، فتُسقطها جثة هامدة على الرمل...
رجاء الوردة قبل أن تبدّدّها الريح...
الأمهاتُ الثكالى، كُنَّ في بيوتِ آبائهنَّ فتياتٍ صغيرات،
يكتبنَ واجباتهنَّ المدرسية، وينشغلن بتزيين الدفاتر ويساعدن الأمهات،
وفي أيامِ الإجازات، يشرقن كما الوردُ الأصفر،
ويملأن البيتَ بفرحٍ صافٍ له صوت الينابيع.

كيف أصبحنَّ، في غفلة من العمر،
وحيدات كزواحف الصحراء على الصخور؟
ويختبئن في دواخلهن كلما اقترب منهن الفرح،
لا أحلام لديهن ولا رغبات لفعل أي شيء، سوى ما تُوجي به لهن الغريزة ليكملن مهمة البقاء.
أمهات الشهداء:

يقطعن الحديث معنا
ويدخلن في نوبات الصمت العميق
يعبرن النهارَ ليلاً،

لينظرن بشوقٍ إلى أطفالهنَّ

من ثقبٍ في سورِ الأبديةِ البعيد.

بمتلن بالأمل أن يفتح لهن الباب يوماً

ثم يعدن إلينا رويداً رويداً،

يشرقن في المكان

كأقمار غُسلت بمطرٍ دافئ،

ويكملن حديثهن

كورداتٍ تشربتها الدموع.

هذا البيت لا يرثيه أحد

هذا البيت لا يرثيه أحد،

ولم يعد إليه من أهله أحد، منذ أكثر من عام، ليؤنس وحدته.

هذا البيت...

أتذكّر صاحبه، يتلفّت يميناً وشمالاً قبل أن يدخله، كلما عاد من صلاة العصر،

كمن يفتح كنزه ويخشى أن يعرف قيمته أحد:

عريشةٌ عنبٍ تفتح على عائلة،

وياسمينة تصلي على النبي كلما دقّ الباب ضيوفُ المساء،

وخوخة عند الزاوية، كخالة متبسمة،

تغويك بممازحةٍ عابرة،

تركوا رائحة الشاي على الشرفات،

لم يسقِ نعناعهم أحد،

ولم يُطفئ أحدُ أضواء المساء،

قبل أن يخلدوا إلى نومهم الطويل،

مرةً واحدة... وإلى الأبد؛

لمع ضوءُ صاروخ،
وأضاء أبديةً على بُعد ثانية،
ثم أظلم البيت...
أظلم إلى الأبد.
هذا البيت لم يعد إليه من أصحابه أحد.

الموت سيشرب قهوتك يا صغيري

سيشربُ الموتُ قهوتك، يا صغيري ...
وستحرس النجوم دمك الذي لم يشربه الرصيف
لن نتركك وحيداً.
هذا إبريقُ قهوتك مُدلقٌ بقربك،
وفي يدك بقيةٌ رغيـف...
سيُكمـله الغياب نيابةً عنك.
هنا فنجانان مقلوبان، وآخرٌ على بسطة الخضار،
سنعيدها كلها إلى أمك،
والقهوة التي لم تبعها بعد،
والنقود التي أحصيتها سلفاً أكثر من مرة،
لا لشيء، سوى أنك اشتقت لبريق الفرح في عيون إخوتك الصغار حين تعود.

ابقِ قليلاً هنا، يا صغيري
ريثما نفرغ من إخلاء المصابين.
ابقِ قليلاً،
وواصل النظر إلى ما ترى في البعيد... البعيد.
قل لهم ما في وسع قلبك أن يقول،

قل لهم إنك لم تكن تملك في هذه الدنيا
إلا إبريقاً، وفجراً، وأمنيةً صغيرة:
أن تعود إلى أمك كل مساء لتُفرح قلبها بأنك كبرت،
وصرت تنوب عن أبيك.

سيصل إليك رجالُ الإسعاف،
ولن يبقى دمك وحيداً على الرصيف.
سيبقى منك شيءٌ هنا يا صغيري،
سيبقى منك شيءٌ في المكان...
أبداً لا يزول